السنة الأولى ماستر ميدان اللغة والادب العربي تخصص أدب جزائري.

محاضرات في مقياس النص الشعري الجزائري الحديث.

الأستاذ: الدكتور يوسف بكوش.

المحاضرة الأولى: الشعر الجزائري في القرن 19.

1-2- الوضع الثقافي والاجتماعي:

ليس من الشك في أنّ سنة 1830م هي نقطة تحوّل كبرى في تـــاريخ الجزائر الحديثة فقد كان حادث احتلال الجيش الفرنسي لمدينة الجزائر صدمة عنيفة هزّت نفوس الجزائريين الأحرار من الأعماق، بل هزّت نفوس المغاربيين جميعا حيث وجد لهذا الاحتلال صدى في الشعر الاونسي وشعر المغرب الأقصى يومئذ عما كتبه أدباء الجزائر وشعراؤها أمثال: **حمدان بن عثمان خوجة، ومحمد بن الشاهد، وقدور بن رويلة، والأمير عبد القادر وآخرون**، فظهر في كتابات هؤلاء جميعا الشعور القومي الوطني التحرّري ربّما لأول مرّة في تاريخ الثقافة الجزائرية طافحا بالآلام ومرارة الهزيمة أمّا جيش الغزاة الذي إكتسح البلاد وأذّل الرقاب وأتى على كلّ شيء جميل ونفيس فاغتصبه ودمّر الباقي، كما امتّدت يده الآثمة إلى المقدّسات فاعتدى على المساجد والقبور، حتّى صار المواطن ابن الجزائر الحرّة يتمنى الموت قبل أن يشاهد مثل هذه الهزيمة كما عبّر عنها الشاعر **ابن الشاهد** في حينه:

أموت وما تدري البواكي بقصتي
وكيف يطيب العيس والأنس في الكفر.
فيا عين جودي بالدموع سماحة
ويـــا حزن شيّد فـــي الفؤاد ولا تسر.

1-3 إغراض الشعر الجزائري التقليدي خلال القرن 19م

إذا جاوزنا شعر الأمير عبد القادر النضالي الرائد في موضوعات الحرب والحماسة و إحياء البطولات لنتحدث عن شعر غيره من شعراء الجزائر في هذا القرن، فإننا لا نكاد نجد شاعرا جزائريا مميزا ينافسه أو يقرب منه في طرق موضوعات الحماسة والتعبير

Scanné avec CamScanner

عن الوجدان الوطني الملتهب وحرارة الإنفعال بالإنتماء رغم توفر الجزائر يومئذ على أسماء عدد من الشعراء الذين ينظمون الشعر في الغالب هواية لا احترافا، وذلك لارتباط أغلبهم بوظائف معاشية أخرى مثل المشيخة والإمامة وتولى مجالس الفتيا والقضاء والتدريس في مساجد القطر الكبرى وفي زوايا العلم والقرآن.

وبعض هؤلاء كان يقيم خارج الوطن أما لظروف النفي الطوعية والقهرية أو لظروف التجارة والحج وغير ذلك، مثل أبناء الأمير عبد القادر لاجتناب مواقف الإذلال والبطش الإستعماري والإهانة المتعمدة.

وقد ذكر أبو القاسم الحفناوى في كتابه " تعريف الخلف برجال السلف" السماء عدد من هؤلاء الإعلام الشعراء الكتاب من أبناء الجزائر المشهورين يومئذ، مثل محمد بن الشاهد الذي وصفه " **شاعر العصر والمصر**، بمعنى شاعر الجزائر الكبير الذي بقيت له بضع قصائد في أغراض الغزل والرثاء والتوسل بالنبي عليه السلام ومدح بعض الشياخة وأشهرها قصيدته في رثاء مدينة الجزائر بعد تعرضت للتخريب أثر الحملة العسكرية و الفرنسية عام (1830م) وقد ناهز على المئة سنة، وتأثرا كثيرا لسقوط مدينة الجزائر التي بكاها في شعره فشاهد يومئذ الشاعر ابن الشاهد بأم عينه دخان الحرائق وغبار الدمار الذي غطى سماء العاصمة الجزائرية و قد لبست السواد لإقامة طقوس الحزن والحداد.

ويقع نص القصيدة في ثمانية عشر بيتا جاء في مطلعها :

أمن صولة الأعداء سور الجزائر

سرى فيك رعب أم ركنت إلى الأسر

لبست سواد الحزن بعد مسرة

وعمت بواديك الفتون بلا حصر

وهذا الإبتداء بحرف استفهام الذي يراد منه الإستغراب وتكرار تقلب الحال على هذه المدينة الجميلة وأهلها الآمنين يدل على هول الفاجعة، كما أن توجيه النداء الى سور الجزائر الذي كان حصينا منيعا في عهد رياس البحر له أيحاد بعيد وتأثر في النفس.

والقصيدة بعد هذا تستفيض في وصف مظاهر الخراب والتدمير والحزن الذي يعتصر النفوس البريئة وتعطيل حلقات العلم والدرس وباع المواطنون متاعهم بثمن بخس

Scanné avec CamScanner

استعداد ا للرحيل من ديار طرد منها الإسلام وحل محله الكفر، يقول

فضجت أناس ، والعقول تولهت

وباتوا على حزن الفراق بلا فكر

فباعوا نفايس المتاع ببخسها

وهاموا حيارى في الفيافي وفي البحر

وهذا أبلغ وصف لحاله الذعر التي حلت بالجزائريين أثر هذا الغزو المنكر، ونرى أن هذا الشعر بالذات مستمد من روح قصائد الرثاء الأندلس وتسكنه نفس الصور المفجعة في قصائد الشعراء الأندلسيين الملتهبة بعد طرد النصارى للمسلمين، ولعل شاعرنا إبن الشاهد أحد حفدة أولائك المطرودين من الأندلس إلى شواطئ الجزائر، فأين المفر إذن.

ومن شعراء الجزائر في القرن (19م) الذين شاهدوا حملة الغزو الإستدماري الشاء حسن بريهمات المنسوب إلى مدينة الجزائر، وكانت له اليد الطولي في الآداب والعلوم الدينية كما يقول الحفناوي [ج3/2] وقد وصف بأنه " أديب الجزائر المترف وعالمها الحكيم وموظفها الصالح" إشارة منه إلى توليه منصب الإفتاء على المذهب المالكي بالجامع الكبير بالعاصمة والتدريس به. فكان يحسن إلى جانب العربية اللغة الفرنسية أيضا وله نظم رقيق اللفظ نبيل المعنى كقوله في تقريظ كتاب : " أقوم المسالك في أحوال الممالك" الذي أهداه إياه مؤلفه التونسي المرحوم خير الدين باشا تقديرا لعلمه، فأرسل إليه بريهمات الجزائري بمقطوعة شعرية يقرظه بها، إذ كان " فن التقريظ " من الأغراض الشائعة، يقول :

لله خير الدين من علم أبدى منار الهدى للناس في الفتن

نهجت نهجا قويما قل سالكه إلى السياسة كي ينجو من الفتن

بينت طرق السداد بل أقومها وقمت منتصرا للدين والوطن

نصيحة منك حق شكر قائلها ومنة منحت من أعظم المنن

إلى آخر الأبيات البالغة أربعة عشر بيتا تتوالى بمثل هذه السلاسة الإيقاعية، و الديباجة المشرقة في موضوع مطروق كثيرا.

وكان موضوع رثاء العلماء و الاخلاء مما شغل بال الشعراء الجزائريين كثيرا في وقت توالت فيه النكبات على البلاد الإسلامية. وموت العلماء والمصلحين ينبئ عند ذوي المواهب بانطفاء مصابيح الهداية. وهكذا نجد الشيخ عبد الحكيم بن سامية الذي عزلته

Scanné avec CamScanner

سلطات الإحتلال الفرنسي من منصبه بقضاء الجزائر ونفيه إلى مصر يتأثر كثيرا لموت صديقة الشيخ محمد عبده الذي كان قد زار الجزائر فلزمه ابن سماية لا يفارقه، فقال فيه هذه القصيدة التي ننقل منها قوله :

فأنت لنا شمس تنير على المدى اتى نورها من غيران نتطلعا

أدير بذكراك الذي منك قد مضى فأشرب كأسا بالصفاء مشعشعا

يذكر فيك المجد والعلم والتقى فأنظر من علياك عرشا مرفعا

و تلوي إلى تلك المجالس فكرتي فتترك قلبي بالخيال ممتعا

محافل كان العلم فيها مجالسي أسامر بدرا بالجلال مقنعا

وهو رثاء تطبعه الصور التقليدية مثل التشبيه بالشمس والبدر ويدور حول محافل العلم والدرس الذي يشكل المثل الأعلى في العلاقة بين الأستاذ والطالب .

وفي موضوع الرثاء أيضا ما نقله أبو القاسم سعد الله في كتاب " تاريخ الجزائر الثقافي [جزء 278/8 عن شاعر جزائري يدعى محمد بن القايد علي الذي لم نقرأ له شعرا اخر غير هذا الرثاء] في فقيد الإصلاحيين محمد عبدة

غاض بحر العلوم أين العزاء؟ وعيون الأنام سحت دماء

فبكى المسلمون حزنا عليه وبكى الدين والتقى والحياء

وهي أبيات من قصيدة ينهج فيها الشاعر الجزائري أسلوب شعراء الرثاء المقلدين إذ يعدد فيها مناقب محمد عبده العلمية و العقلية.

ومن تلك الأغراض الشعرية الجزائرية خلال هذا القرن (19م) غرض **الغزل**، وموضوع محبب القلوب ويكاد يطرقه الشعراء جميعا لما فيه .من رمزية محببة ومعان روحية محجبة لا تغيب عن الروح حتى في أحلك لحظات العمر، وأزمات العصر، ونمثل لهذا الغرض ببيانات لشاعر جزائري لم يذكره- في حدود علمي- غير الشيخ الفناوي في " تعريف الخلف " وهو الشاعر الكاتب عبد الله بن محمد بن موسى البجاءئ الذي قال فيه الحفناوى " من ا صاحبنا الذين هم في وقتنا" وهو جامع للكتابتين الأدبية والشعرية [الجزء 62/2].

ووصف الحفناوى نظمه بأنه " سلك فيه طريقة الحجازيين والنجديين ينحو فيه إلى اللطافة وتجانب الكثافة" يقول الشاعر عبد الله بن محمد البجائى :

Scanné avec CamScanner

من أرض نعمان هبت نسمة السحر جاءت بنشر عبير طيب عطر

نمت بسر خزا مى الجذع واحتملت ما ضاع من نفحات البان والسمر

لله ما هيجت من وجد مكتئب وما أثارت من الأشجان والفكر

إلى آخر أبيات هذه المقطوعة البالغة أحد عشر بيتا تفيض رقة وعذوبة في ألفاظها وموسيقاها ،فيصدق فيها أنها شبيهة بالشعر العذري العربي، وبهذا نختم هذه الفقرة في الأغراض الشعرية الجزائرية.

ولا شك في أن هناك شعراء جزائريين أخريين طرقوا موضوع الفخر مثلما نجد في شعر محي الدين بن الأمير عبد القادر في الفخر بشجاعته ومثلما نجد في شعر جماعة من المقربين إلى السلطات الإستعمارية في مدح نابليون الثالث إمبراطور الفرنسيين " والعرب" كما يحب أن يسمى نفسه، وعلى كل حال فإن أغراض الشعر الجزائري خلال القرن 19 م كانت كلها تقليدية.

— المرحلة الثانية : الشعر الإحيائي و الإصلاحي والنضالي الثوري.

2-1 : عوامل الإحياء واليقظة في الأدب الجزائري مطلع القرن (20م)

عرفنا من قبل حالة الشعر الجزائري خلال القرن (19م)، وسجلنا باهتمام تجربة الشاعر الأمير عبد القادر بن محي الدين الذي يعد بحق فاتحة شعر الجزائر في العصر

Scanné avec CamScanner

الحديث، بفضل وعيه الفني المتميز بخصوصية الشخصية الوطنية الجزائرية التي سعى إلى تجسيدها في مشروع دولته المستقلة اولا، بالرغم من محن الإستعمار الفرنسي المتلاحقة، وثانيا بفضل تعبيره الفني الشعري عن هذا الوجدان الجزائري الحي، وتمثيل ملامح الشخصية البطولية المتميزة بكل أبعادها العربية والإسلامية والمحلية، وما تتضمنه من مقومات القوة والحق والعدل والتشبث بالحياة الكريمة والذود عن العزة الشامخة التي ينفرد بها شعر الأمير عن أقرانه في ذلك العصر.

وفي مطلع القرن (20 م) جدت أمور كثيرة في المجتمع الجزائري، أعادت الأمل في نفوس الجزائريين، فدبت الحياة في عروق أدبائنا وشعرائنا بظهور بوادر انفتاح نسبي على إحياء الأمل في زرع بذور إصلاحية ونضالية وثورية في دماء الشعر والأدب الجزائري بفعل عوامل كثيرة فصل فيها الكاتب الجزائري سعد الدين بن أبي شنب في مقال مطول بعنوان " النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة " [مجلة كلية الآداب الجزائر، عدد 1] ونجمل هذه العوامل كالآتي :

- **على الصعيد السياسي:** عدل الزعماء الوطنيون الجزائريون مؤقتا عن مواجهة المحتلين بقوة السلاح الناري إلى محاربته سياسيا وثقافيا وإعلاميا باستغلال قوانينه الإدارية في الديموقراطية والانفتاح الثقافي والتسامح الديني التي تتبجح بها الدولة الفرنسية هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن صعود جيل من المثقفين الجزائريين المتعلمين في المدارس الفرنسية الإسلامية وإتقانهم لغة المستعمر قد سمح لهم بالعمل في الدوائر الرسمية وتولي بعض المناسب فيها فعرفوا عن قرب منطق التعامل مع هذه الإدارة الأمر الذي يسر عليهم المطالبة بحقوقهم وحقوق الشعب الجزائري بطرق سلمية كما نعرف عن حركة الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر بعد المشاركة الجزائرية في الحرب العاملية الاولي ضمن قوة الجيش الفرنسي .

- **وعلي المستوى الإجتماعي** تحسنت أوضاع الجزائريين في فلاحة أرضهم والإستقرار بها، كما تشكلت نواة من الموظفين الإداريين الجزائريين، ونواة أخرى لهم من العمال والأجراء في تكتل شبه نقابي بالموانئ والمناجم والسكك الحديدية

Scanné avec CamScanner

وغير ذلك فصارت تهدد بالإضراب والمسيرات للمطالبة بالحقوق، وهو وعي اجتماعي جديد تماما تغذيه التيارات السياسية العمالية عالميا و محليا .

- **وعلى الصعيد الثقافي** استوعبت النخبة المثقفة الجزائرية كل هذا التكتل والمد الشعبي المتنامي والوعي المتزايد بعناصر الهوية الوطنية واستقلالها عن هوية المستعمر، فنشطت المطالبة بفتح نواد وتأسيس جمعيات للجزائريين محليا ووطنيا يمارسون فيها مختلف الأنشطة الثقافية والألعاب والتسلية في لقاءاتهم وتجمعاتهم الهادفة، فظهرت تبعا لذلك المكتبات للمطالعة والصحف الوطنية المعبرة عن مشاغل الشعب الجزائري وهمومه كما ظهرت العروض المسرحية والأنشطة الرياضية أسوة بتجمعات الأوربيين واليهود في أنديتهم ونشاطهم الثقافي والديني، وهكذا انطلت الألسن والأقلام تتكلم وتكتب والعقول تفكر والإنتاج الأدبي يزداد فانتعش الشعر والنثر والمسرح، وقويت حركة التأليف بالعربية ونشر المخطوطات التراثية مع وجود المطبعة لأحد المستعربين يدعى " فونطانا " بالعربية، وقد ساعد الإستقرار النسبي في الجزائر وهذا الانفتاح المحتشم على تشجيع كثير من العلماء الجزائريين المهاجرين للعودة إلى الوطن كالشيخ الإبراهيمي و الشيخ الطيب العقبي والأمير خالد كما ذكرنا وغيرهم، ونشطت هممهم للتدريس العربي الحر في المساجد أو في مدارس الجمعيات الوطنية ونواديها.

- ومن جهة أخرى نشطت حركة نشر التراث الجزائري الأدبي والعلمي ليتعرف عليه أبناء الجزائر ويدركوا عظمة أجدادهم وعزة وطنهم عبر التاريخ، فألف الشيخ سعيد بن زكري بعد عودته من المشرق كتابه " أوضح الدلائل على وجوب اصلاح الزوايا ببلاد القبائل " . وكتب أبو القاسم الحفناوى بن الشيخ كتابه الضخم، وأطلق عليه هذا العنوان الدال " تعريف الخلف برجال السلف" عام 1905م، وأخرج محمد بن أبي شنب العلامة العضو بمجمع اللغة العربية بدمشق يومئذ عدة أبحاث في العلوم العربية والاثار الجزائرية و الأندلسية اندهش لها المثقفون الفرنسيون قبل الجزائريين [ينظر عبد الرحمان الجيلالي محمد بن أبي شنب- حياته و أعماله].

Scanné avec CamScanner

وتبع الشيخ مبارك الميلي هؤلاء الكبار بإخراج كتابه الخطير الشأن يومئذ وهو " تاريخ الجزائر في القديم والحديث (1926) ردا على مزاعم السلطات الإستعمارية التي تنكر أن يكون للجزائر تاريخ وحضارة.

وختمت هذه الحلقة الأولى بصدور كتاب أنيق في موضوع من صميم الإبداع الأدبي والوجداني لأبناء الجزائر في الحاضر هذه المرة كتبه شاب جزائري طموح وهو الهادي السنوسي بعنوان " شعراء الجزائر في العصر الحاضر " ذكر فيه مالا يقل عشرين شاعرا جزائريا اثبت لهم فيه قصائد ومقطوعات شعرية رائقة بالإضافة الى ذكر أخبارهم العلمية والوطنية.فتأكدت بذلك هوية الجزائر الحقيقية في هذه الكتب وشعارها – كما عبر الشاعر الجزائري محمد اللقائي السائحي

بني الجزائر هذا الموت يكفينا

لقد أغلت بحبل الجهل أيدينا

2-2 الشعر الاحياءي الإصلاحي في الجزائر

كان من الطبيعي جدا أن يرتبط الشعر الجزائري الحديث بتيارين عظميين في حركة اليقظة والنهضة العربية الحديثة وهما تيار الإصلاح الديني والإجتماعي لإنقاذ عامة أفراد الشعب الجزائري وخاصتهم من التردي في الضلالات والأباطيل التي زرعها الفكر الإستدماري الغازي لبلادنا وغذتها عقول الجهل وانتشار الأمية لتخليص النفوس من الوهن وذهنيان التواكل والإيمان بالخرافات من ناحية وزرع عناصر الثقة بالنفس وقيم العمل والنضال والعودة الى المنابع الأولى الصافية في العقيدة الإسلامية، لأن مأساة الشعب الجزائري أصلا كامنة في هذا التشويش الذي بثته في أوساطه الدعاية الإستعمارية بأن الإحتلال قضاء وقدر ليس في استطاعة الشعب مقاومته.

- أما التيار الآخر فيتمثل في ارتباط الشعر الجزائري الناهض بمنابع الشعر العربي القديم واتكائه على قصائد الشعراء المشهورين في التراث واحتذاء طريقتهم في نسج الشعر و بنائه أو ما يسمى " بعمود الشعر العربي في الأوزان والأغراض والاستعارات والصور وحتى الألفاظ أو المعجم اللغوي المستمد من القران والحديث الشريف وكلام العرب

Scanné avec CamScanner

الفصيح.والغاية من ذلك زرع دماء جديدة في اللغة العربية التي أضعفها الإستعمار في الجزائر وحاربها بشراسة ومنع تعلمها والكتابة بها إلا في أضيق الحدود.

ونقطة البداية في الشعر الجزائر الإصلاحي هي تأمل الشاعر الجزائري في الأمراض الإجتماعية والإنحرافات الدينية المنتشرة في الأوساط الشعبية مثل الجهل والأمية والبدع المنكرة والإستسلام المريع لفكرة المكتوب" والقبول بالمظالم الإستعمارية وفي هذا يقول أستاذنا عبد الله ركيبي :

" والدارس للأدب الجزائري الحديث يلاحظ ان الشاعر في هذه الفترة كان يتأمل واقع المجتمع، وما استشرى فيه من أداء محاولا إصلاحه من زاوية الدين، فنراه يذكر في كل مناسبة بأن الرجوع إلى القيم الروحية و اقتفاء أثر السلف الصالح هو سبيل النجاة، وأنه لا يصلح أخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها " [الشعر الديني الجزائري الحديث .ص 363/].

ومن شعراء الجزائر الأوليين الحاملين لمشروع الإصلاح في قصائدهم مطلع القرن (20م) نذكر الشاعر : المولود بن الموهوب من مواليد مدينة قسنطينة عام 1866، فكان تعليمه الديني وثقافته الإسلامية في التراث العربي دعما له على اتباع النهج الإحياءي والفكر الإصلاحي في بلده الجزائر، ويذكر الركيبي أن قصيدته " المنصفة" التي بناها على نظام معلقة الشاعر عمرو بن كلثوم من البدايات الطيبة في شعر النهضة الجزائرية حيث يقول ابن الموهوب ابتداء :

صعود الأسفلين به دهينا

لأن للمعارف ما هدينا

رمت أمواج بحر اللهو منا

أناسا للخمور ملازمينا

ونلاحظ أن الشاعر يعرض بالأذناب من الجزائريين الذين وضعوا أنفسهم في خدمة سلطات الإحتلال على حساب إخوانهم في الوطن كما يعرض بالتافهين المتهالكين على شرب الخمور " أم الخبائث" التي تلد سائر الأمراض الإجتماعية الأخرى ويعد الشاعر هاتين الآفتين من الدواهي الكبيرة إلى جانب آفة الإقبال على اللهو ومجانبة الجد في العمل والإستقامة في السلوك، ويعد شاعرنا في قصيدنا مجموعة من الأمراض والانحرافات

Scanné avec CamScanner

التي يشجعها الإحتلال مثل القمار، والربا، والسعي المستعمر بالنميمة إلى أن يصل إلى آفة الجهل النكراء فيذكر معها بما امر به الكتاب العزيز من وجوب التعلم والعمل قائلا:

نعم : إنا شقينا إذ شقينا

كؤوس الجهل لكن ما روينا

ينادينا الكتاب لكل خير

فهل كنا لذلك سامعينا

فهذا الهتاف العنيق هو نداء ربنا في القران الكريم الذي يقرأ منه المسلم في كل يوم بعض الآيات في صلاته، ولكن غشاوة الجهل على أذنيه يجعله لا يسمع " اقرأ باسم ربك".

إن شاعرنا إذ يذكرنا بحضور الوعي والفطنة ونبذ الغفلة في أمور ديننا الحنيف يذكرنا في الوقت نفسه بتراث العربية لسان حال القرآن العظيم،ويكاد يعيد على سمعنا بعض الشعر العربي الذي قرأه هو فيستدعي في أبياته أبيات قصيدة عمر بن كلثوم لاسيما في قوله

فإنا الجاهلون إذا فعلنا

وإنا الفاعلون إذا نهينا

وأنا الناكرون لكل بر

وإنا الراكنون اللذينا

وهي لهجة تقريع وزجر ونهي استمدها في معلقة عمرو بن كلثوم ليوظفها في سياق مختلف عن الماضي لكن الأداة واحدة.

ثم يخلص الشاعر الى غرضه المحوري المتمثل في الحث على تعليم الإسلام السمحة الصافية في كلام الله المنزل وحديث رسوله الصحيح.

إلا يا قوم ما السلام هذا

ودين الله رب العالمينا

أتى الإسلام بأمرنا يعلم

وبشير في المنافع ما حيينا

وجمع بين دنيانا وأخرى

تدبر قول خير المرسلينا

Scanné avec CamScanner

فها هو ذا طريق النجاة والفوز في الدنيا والآخرة إذن طلب العلم الصحيح الذي أمر به القرآن و الشرع وبينه الحديث الشريف ثم العمل الذي يجمع بين سعادة الدنيا وخير الآخرة.

إن شاعر المولود بن الموهوب قدادى هذه المعاني كما نرى بلغة سليمة مبشطة ومنطق سهل واضح لم يتكلف فيه الغريب ولا الجمل الطويلة الملتوية، وهذا يناسب تماما مستوى قرائه في ذلك الوقت.

وبحق لاحظ الأستاذ الركيبي أن شعراء الإصلاح والحياء في الجزائر لهذا الوقت المبكر مطلع القرن العشرين " نجد الشاعر منهم يتأمل نفسه والكون والطبيعة وينطلق من ذلك الى الحديث عن العلم بعد أن يقنع الملتقي أن الحياة لا تستقيم إلا بالعلم"[الشعر السياسي 579] والعلم هنا يعني العلم بالدين الحنيف على أصوله الأول ثم العلم بسنن الله في الطبيعة والكون، يقول شاعر جزائر آخر يدعى سعد الدين بن الخمار (ولد 1866)

الله أكبر نور العلم وضاح

وللخلائق أمواح وأفراح

والكون بيت عديم النور محتجب

والعلم زيت وهذا العقل مصباح

والعقل رتل تسير الكهرباء به

كما تسير بهذا الشبح أرواح

فتشبيه الكون بالبيت والعلم بالزيت الذي يوقد للإضاء صورة بديعة وبرهانية مقنعة جدا ومأخوذة من الوسط الاجتماعي في ذلك العهد، كما أن ذكر العقل الكهرباء يناسب ثقافة سكان المدينة يومئذ في مقابل زيت المصباح في أكواخ الريف، وبهذا وفق الشاعر إلى رسم صورة دالة ومعبرة في وقت واحد.

هذا، ولو لرحنا نتقصى جميع الشعراء الجزائريين الذين عالجوا موضوع الإصلاح ويقظة الضمير الديني والوطني في الرابع الأول من لقرن العشرين لطال الكلام عنهم مثل الشاعر المولود الزريبي نسبة الى زريبة الوادي قرب بسكرة في مثل قصائده " زفرات العشى " " وزفران الحيران" و"معه كئيب "

Scanné avec CamScanner

وكذا الشاعر عبد الحق الحنفي نسبة إلى خنفة سيدي ناجي الذي دعا صراحة إلى العودة للكتاب ولمسنه ليس غير فما الدين إلا من كتاب وسنة وغيرهما زور من القول منكر ولكن الشاعر الجزائري اللامع في هذه الحقبة حتى غطى شعاعه الشعري الإصلاحي على شعره غيره إنما هو عمر بن قدور الجزائري نسبة إلى مدينة الجزائر والذي عاش ما بين (1886 – 1932م) وبعد أن أتم تعليمه الحر اشتغل بالصحافة فأسس مجلته " الفاروق" في 28 فبراير 1913، واختار لها هذا الإسم الرمز لتكون عنونا لدعوته الإصلاحية الجادة لا يقاظ الضمائر واثارة الهمم في بني وطنه، وكان عمر ابن – كاتبا بليغا وصحفيا محررا وشاعرا احيائيا على طريقة الشعراء القدماء الكبار، وتشهد إثارة الكتابية بعمق ثقافته وسعة اطلاعه وحدة وعية القومي والعربي والإسلامي، وهي البيئات الثلاثة التي سخر قلمه للكتابة فيها والدفاع عنها.

أ- **على صعيد البيئة المحلية** كان ابن قدور يناضل بقلمه وشعره لأجل إزالة غشاوة الضلال والانحراف الديني والخلقي ومحاربة الجهل بالإسلام على حقيقته لا كما روجت له الطرقية المنحرفة التي تلقى تشجيعا من سلطات الاحتلال يقول المولود الزريبي في القصيدة الأولى

كأني بزفرات العشي موكل

وفي الكوكب الإفريقي ابدي دواها

إذا دهمتني النوائب برهة

رفعت له الشكوى فأمسي مساها

فأنت تراني تارة أزعج الملا

وحينا كما الخنساء ترثي أخاها

أقول وأهل الحي مني بمسمع

وأغرق عيني في بحور بكاها

أعوذ برب العرش من فئة طغت

وما برحت في غيها وعماها

والملاحظ في بناء هذا الشعر تلك الروح الإحيائية المتحمسة كما يبينه هذا المطلع الذي يشير الى مصادره في الشعر العربي القديم.

Scanné avec CamScanner

لكن نص القصيدة الثانية للزريبي أشد أحكاما و ادخل في صنعة الفن الشعري واكثر اقترابا الى روح العصر الحديث كما نرى في هذا الاستهلال

يابدر مالك بإنحاء تفتخر

الم تكن لطلوع الشمس تستتر

إلى أن يقول:

و العقل تصلحه العلوم و الحكم

و ليس تصلحه الآصال و البكر

يا قوم مالي أراكم في جهالتكم

كقوم موسى طغوا فهالهم صغر

هذا الذي ترك العلوم خامدة

و أفسد القطر حتى عمه الضجر

إلى أخر هذه القصيدة التي تقيض بالروح الإصلاحية و الدعوة إلى أحياء المجد الغابر للحضارة العربية و الوعي القومي بالاحتلال لتمرير مشاريعها الاستعمارية باعتبار وجود الفرنسيين بالجزائر كان قضاءا وقدرا من الله لا جدوى من محاربتهم، ففي قصيدته " قلب أواب" نظمها عام 1913 يصور ابن قدور هذا الإحساس بالإنحراف عن جادة الصواب عند من يزعمون المشيخة بوظيفة رسمية يقبلونها من سلطات الاحتلال وهم يضرون الشعب أكثر مما يرشدونه، ويتشوق إلى اليوم الذي يرى فيه الإصلاح قد تحقق في بلادنا قائلا :

قلب له ارب أعلى مراتبه

أن يبصر الشعب والإصلاح يدخله

رحماك يارب كم أنشأت من ذمم

إلا ودينك بالأرزاء تمهـ . . . . لـه

اخترت حامله فردا، وأمته

منحطة، شهمها الأواب تخذ له

واخترته معدما قلت وسائله

والنهج من حوله الأخطار تذهله

Scanné avec CamScanner

يكاد يفنى أسى مما يحيط به

لولا أن يرى رأفة المولى تظلله

فهذه صورة للنبي محمد (ص) أيام الدعوة الإسلامية الأولى، ولكنها أيضا صورة المصلح الجزائري الصبور أيام الإحتلال الفرنسي لبلادتنا فيتشابه الموقفان ويتداخلان في هذا النص الشعري بألفاظه الجزلة وموسيقاه الهادرة وكأننا نرى مشهدين في إطار صورة واحدة.

وفي قصيدته الأخرى " الضمير الاصدع " نرى عمر بن قدور مصلحا ثائرا مجاهرا بدعوته إلى اتخاذ العلم الصحيح مطية لدعوة الحق، ومفندا في الوقت نفسه أدعياء العلم المزيفين الذي يصطنعون الخديعة والكذب للاستحواذ على أموال الشعب عوض تنوير عقولهم فيقول :

اعرف جمال العلم عند حلوله

بضمير شهم للصلاح رفيق

وأنكر- هداك الله- خطة عالم

يلهو ، ويزعم إنه لخليق

دعواه أن العلم محض دراسته

ولصيد أموال الرجال يليق

فهذه صورة شعرية رسمتها الكلمات لمعركة حقيقية حامية بين علم جميل ناصع البياض وعلم قبيح كالح مسود، بين عالم يجد في التحصيل والعمل والإبداع والتوعية وعالم مزيف يراءي الناس ويتحين الحيل لكسب الأموال بالباطل ويتخذ المنصب وسيلة لذلك، لهذا لا نستغرب أن يكون " الشيطان" أحد المناصرين للباطل في تلك المعركة الإصلاحية التي يقودها الشاعر ضد الجهل في قوله :

وإذا أبت نفس الفتى من علمه

وعظا دعت شيطانها فيسوق

وما أحسن ما قال في الأبيات اللاحقة وما أجود تعبيره في مثل " صيحة أمة " ساءت مداركه" قائلا :

وإذا أراد الله صيحة أمة

Scanné avec CamScanner

مدت إليها بالذهول طريق

وسما على رغم الشرائع كل من

ساءت مداركه فجاء يروق

حسب العلا عند اقتناص مناصب

أو عندما يخشى الوسام بروق

وما أبلغ أسلوب التقديم والتأخير النحوي الذي لجأ إليه الشاعر في الشطر الثاني من البيت الأول والثالث والصدر من البيت الثاني، ولا شك أن شاعرنا ابن قدور كان في مستوى أستاذه أبي تمام الذي استعار منه الإطار والقالب دون الصورة والمحتوى حيث يقول أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلـ . . ـة *طويت أتاح لها لسان حسود*

ولولا اشتعال النار فيما جاورت *لم يعرف طيب عرف العود*

لكن ابن قدور مشغول بالإحياء والإصلاح العميق الصادق وإيقاظ النفوس الغافلة عن الحكمة السائرة.

وقد يستعمل الشاعر ابن قدور أسلوب الاستفهام الإنكاري الذي يضمنه الإستغراب و الإدهاش للتعبير عن حسراته على هؤلاء الذين مازالوا في غفلة من أمرهم و أمر بلادهم ودينهم رغم وضوح الحجة وبيان النهج فيقول

كيف السبيل إلى التقدم والنهي

والسعي غيي والفعال عظاة

الله أكبر ما وجدت بقومنا

من بالمعارف والهدى يقتات

أخلاقهم تنمو بها أدرانهم

وقلوبهم تنمو بها الحسرات

فالصورة الفنية التي رسمها في استعارة القوت للمعارف في البيت الثاني للدلالة على عنصر الخير مقابل تشبيهه الأدران أي الذنوب والحسرات بالنبات الذي ينمو للدلالة على عنصر الشر هو من أحسن الشعر، إذ جمع بين الشيء وضده وبين السبب والنتيجة في صورة جامعة.

Scanné avec CamScanner

ولقد كانت صيغة الشاعر عمر بن قدور بعد ذلك في مجال التشبيه على أهمية الأخذ بأسباب العلوم والجد في تعلمها لأجل الرقى وتحقيق الكرامة الإنسانية مازال يدوي في أذاننا إلى اليوم، أن ننظر إلى الأمم من حولنا ونتأمل أسباب التقدم والعزة والرفاه وهل يكون ذلك كله إلا كما قال ابن قدور منذ ما يقرب من مئة سنة:

بربك ! هل تدري الحياة ؟ وأنها

جهاد ! وأن العيش ضيق ومغرم

هل تعلم القوم الذين تقدموا

علينا ؟ بعلم لا بجهل تقدموا

صحيفة هذا الكون تنشر دائما

وتعلم أن المجد أمر محتم

ذلك هو الشعر الإصلاحي الإحياءى الذي حمل لواءه في الجزائر الشاعر الرائد دون منازع عمر بن قدور الجزائري الذي كانت نفسه تحترق بين جنبيه لتحقيق نهضة إصلاحية حقيقية ببلاده فعاش حياته مشهرا لها قلمه مدافعا عنها يحدوه الأمل في تحقيقها يوما ، وقد يعصف به اليأس أحيانا أخرى لأنه كما يقول :

عظيم على نفس اللبيب مذلة

تدوس نفوس تستهام وتظلم

فيا حسرة تغدو على القلب حينما

يرى أمة تفنى وأخرى تقسم

وتلك حال الأمة العربية و الإسلامية التي عمل فيها الإستعمار سلاح التقتيل والتقطيع، غير أن الإنسان الحر من يقبل التحدي ولا يقبل الهوان ولا يسكت عن الباطل.

2-3 الشعر النضالي و التحريض الرومانسي علي الثورة :

ارتبط الشعر العربي عامة و الجزائري خاصة بفكرة النضال منذ حلول الغزو و الاحتلال ببلادنا ، فكانت تجربة المقاومة مستمرة بكل الوسائل المتاحة . و لما كان الشعر تجربة وجدانية مؤثرة فقد كان احد اسلحة هذه المقاومة لشحن الشعور بالعزة و الكرامة و حمل

Scanné avec CamScanner

النفوس الابية علي الثورة ضد الاحتلال و تحريضها علي قتال الاعداء فامتزج ذلك الشعور الثوري بحب الوطن و التمسك بالمقومات القومية و التغني بجمال الوطن و طبيعته الفاتنة .

و قد يكون الكاتب الشاعر و الصحفي القدير رمضان حمود الدي لمع نجمه في جزائر العشرينات من الرواد الذين نفثوا انفاس الثورة العارمة في الشعر بعد حماسة الامير عبد القادر علي اختلاف في فن الرجلين فكان قلم الكاتب رمضان حمود المشتعل في ميدان المفتلة الصحفية في مثل شعلة انفعاله في قصائده الشعرية للحث علي الثورة و شحن الشعور القومي الوطني يقول في قصيدة بعث بها الي صديقه ابي اليقظان :

يا رافعا قلما للحق تشهـ . . ـره — جزاك ربك منحلا كمرتحل

لك الدعاية ، فالاذان صاغيـ . ـة — فاصدع بحق و لا تركن الي ملل

انذر ، و نهض بلادا ساء موقفه — بين الانام ، و كانت قبل في قلل

و انفخ بها قوة تشفي الغليل بها — و اصرخ ، و حرض و أيقظها من الكسل

شر البلاد بلاد خاف ساكنـ . . ـها — من جمرة الجور او من فتكة السفل

فقد وظف الشاعر معجما لغويا في غاية الجرأة و الحماسة و استعمل لهجة التحريض المباشر في قوله (انذر ، نهض ، انفخ ، اصرخ ، حرض ، ايقظها....) مولدا بهذا مناخا ثوريا حقيقيا يوشك ان يتحول في البيت الاخير الي بلاغ حزبي يحرض علي الثورة فشعره هذا يحمل شحنات عالية من الانفعال بالغضب و يستحضر الاحساس بالتحرر من ظلم المستعر الفرنسي .

هذه اللهجة التحريضية و الغضب الشعبي نجده في شهر الشاعر الجزائري الاخر محمد الهادي السنوسي الذي ادهش النخبة المثقفة بوعيه المبكر و شعره الثوري النضالي ففي احدى قصاده الي صديقه ابي اليقظان بالجنوب الجزائري راجيا منه ان ينشرها في صحيفته واد ميزاب نقرا فيها ابتداء :

دعا بك من قومي خيار شبابي — فلا تنائ عن داعي الهدى بجناب

اذا كان همي مثل همك فاليكن — عذابك في دور الكفاح عذابي

و ليس لنا الا الجزائر موطنا — ترابك فيها واحد و ترابي

هي الام است في الصبا كل مرضع — و فيها اهتدى الساعون سبل صواب

Scanné avec CamScanner

ساقضي لها حق الامومة انها بلادي التي فيها محط ركابي

ففي هدا الشعر نتحسس جزءا من ذلك الحب الكبير العميق الذي يحسه هذا الشاعر اتجاه وطننا الجزائر ايام الاحتلال اذ كان وطنا مسلوبا ، ز نكاد نلمس في هذا الشعر قيمة الاشياء العزيزة و نشم رائحة التراب غي البيت الثالث ، و نرى صورة الواجب المقدس في البيت الرابع مقرونة بصورة الامومة المقدسة في البيت الخامس كل ذلك جاءنا بانفاس من الحنين الرومانسي الذي يذيب الانسان في الطبيعة و كان السنوسي الشاعر يلح اكثر علي صورة التمرد و الثورة من خلال التكرار الذي يثبت به المعني في النفس

وكل امرئ حر الضمير فانني سانزله مني فسيح ركابي

و اني لحر في حياتي فان امت فحريتي المثوى و حسن مآبي

فشاعرنا قد تحررت مشاعره تماما اذ حرره شعره الذي ارتفع بفضله فوق قهر الاحتلال ، وهو ما يشعر به كل مواطن جزائري في اعماق نفسه فارواح الجزائريين الاحرار لا يستطيع الغزاة القبض عليها مهما اشتد قهرهم و بطشهم في ذلك الوقت .

هذا المعني ذو المنزع الروحي التحرري نجده مغروسا في تجربة شاعر جزائري اخر في دلك العهد و هو محمد السعيد الزاهري الذي تعلقت همته بتعلم العربية و تملك ناصيتها حتي صارت طيعة عاي لسانه منذ حداثة سنه اذ يقول و هو بعد طالب بالزيتونة خاطبا الجزائر وطنه المسلوب :

يا للجزائر ! من هاضها وسطا حكما عليها ، و كانت امة وسطا

لملكها كانت الايام صاغرة اكان اقسط ذاك الملك ام قسطا

فكم ممالك كانت تحت عزتها كالبازي ملئ رعبا منه سرب قطا

لم تعتلق بعظيم قط همتنا الا اثنينا ، و لسنا نعرف القنطا

غهذا البيت الاخير جامع المعني تلتقي عنده خيوط الصورة الفنية التي رسمها الشاعر لعزة الاجزائر و كراتها عبر التاريخ ، و قد اختار لها حرف الطاء رويا متكررا لموسيقاه الجهرية الطنانة كي نعكس وقعه في النفس فيتولد منه الاحساس بالثقة و الافتخار .

و الشاعر الزاهري هو ايضا صاحب القصيدة الجميلة التي خلد فيها حبه للجزائر و تفانيه من اجلها كما يفني الصوفي في حب الله يقول علي الخصوص :

ويلاه اذهل خاطري عما بي ما للجزائر من اليم عذاب

Scanné avec CamScanner

فنسيت في بؤس الجزائر كلما القاه في الدنيا من الاتعاب

و فنيت في حب الجزائر مثلما يفني المحب الحق في الاحباب

كيف الخلاص من الجزائر بعدما ملكت علي مشاعري و صوابي

فاذا ضحكت فللجزائر ، او بكيت فلم يكن الا لها تنحابي

او ابت يوما او ذهبت ففي الجزائر مذهبي ابدا و مآبي

و اذا اصاب بني الجزائر حادث فهناك عظم بليتي و مصابي

و يلذ لي من بعد ذلك ان يط . . . . . ول علي الجزائر فـ الحساب حسابي

هذا شعر يجمع بين سيولة الايقاع و رشاقة اللفظ و متانة التعبير عن الشعور فتوحد احساس الشاعر بمكونات وطنه حتي لم يعد شاعرنا يري شيئا او يسمع شيئا او يتذوق شيئا الا من خلال صور الوطن بانسانه و طبيعته و ارضه و هوائه .

و لا نكاد نصل الي محمد العيد ال خليفة الذي عرف بشعره الاجتماعي و الاصلاحي كثيرا حتي نجده هو الاخر قد شارك غيره من شعراء الجزائر هذا الاحساس بالثورة علي المحتل الغاصب و الدعوة الي مقاومته كما في قصيدته (الثامن ماي 1945) يقول فيها :

فيالك من خطب تعذر وصفه فلم تجر اقلام به فوق قرطاس

و لا خير في عد المظالم وحدها اذا لم تبن عن مرهفات و اتراس

سئمنا من الشكوى الي غير راحم و غير محق لا يدين بقسطاس

فهذا تحريض ضمني علي رفع السلاح لمحاربة المحتلين بعد ان وصفهم الشاعر بعدمي الرحمة و هاضمي الحقوق .

و هناك شعر كثير جدا نظمه الشعراء الجزائريون في جرائم المحتلين في الثامن ماي 1945 حتي ان أستاذنا عبد الله ركيبي قد جمع منه ما يعادل ديوانا من الشعر و نشره بهذا الاسم و هو كما نرى شعر نحس فيه حرارة الوجدان و صدق التجربة الي قوة الصياغة اللغوية و مناسبة الالفاظ للصورة مما يعني انتعاش اللغة العربية و استرجاعها لمكانتها بفضل جهود جمعية العلماء و المدارس الحرة و الحس الشعبي الاصيل ذلك الحس الذي حمله هذا الشعر و عبر عنه بقوة فكان خير ممهد لتحضير النفوس و قيام ثورة التحرير.

Scanné avec CamScanner

2-4 ثورة التحرير الكبرى ودويها في الشعر الجزائري:

سبق الذكر أن أصوات الشعر الجزائري الداعي إلى الإصلاح الديني والاجتماعي قد بلغت غايتها في مشروع جمعية علماء المسلمين الجزائريين وتحولت إلى أصوات استنفار وتحريض على الثورة وتأجيج شعور المقاومة، النضال على ذلك النحو من السخط العارم الناقم عقب مجازر الإحتلال في الثامن ماي 45 الذي كان الشرارة الأول للثورة المسلحة الكبرى.

كما أن أصوات الشعر الجزائري الضاجة بالشكوى من البؤس والحرمان وظلم الاحتلال والعيش التعس والجهل القبيح قد وصلت إلى حد الإشباع هي الأخرى، وتبين للشعراء الجزائريين أن رسالة الشعر الحق أن يقدم الغذاء الروحي المعنوي ويرسم طريق الأماني والخلاص ويزرع الثقة في النفوس لتنهض والعزائم لتقوى وتقام لا أن يقدم مزيدا من الدموع والآهات.

لهذا كله جاء إعلان الثورة الكبرى واندلاع حرب التحرير الشاملة في بيان أول نوفمبر (1954) بمثابة إنقاذ لهذا الشعر الجزائري الذي كان قد بدا في مضمونه كأنه شاخ وبلغ النهاية في أغراض التشكي والتبكي وفي صرخات الدعوة إلى الإصلاح، فسارع الشعراء إلى اعتناق الثورة المعلنة وتنافسوا على اختلافهم في التعبير عن لهيبها بحماس فياض افقدتهم أحيانا كثيرة السيطرة على القريض وكادت عزة الثورة أن تنسيهم نخوة الشعر، فنظم مفدي زكريا ديوانه " اللهب المقدس" تحت تأثير شموخ هذه الثورة وارتفاع نغمة البارود كما نقرأ في قصيدته " وتعطلت لغة الكلام " في إشارة إلى لغة السلاح الفاصلة بين حق الشعب الجزائري الثائر وباطل الاستعمار المنهزم لا محالة بركان يقذف الحمم من فوهة النصر المرجى الذي تحدوه قوافل الشهداء، غير أن هذا الإستهجان المزعوم لتهافت الكلمة الشعرية أمام قوة التضحية بالروح والدم سرعان ما يتبخر في ذهن أبي القاسم خمار فيندفع إلى نظم ديوانين من الشعر في أحداث ثورة التحرير رغم بعده عنها خارج الوطن يقول في سياق الخطابة واللهجة الثائرة :

أين مني قصيدة تتلظى من قصيد يفيض حبرا أبيا

أين مني أغنية لليالي من هتاف غطى الربوع دويا

أين مني، وفي الجزائر آهات تهز القلوب هزا قويا

Scanné avec CamScanner

قام يختال كالمسيح وئيدا يتهادى نشوان يتلو النشيدا

الي اخر لبات هذه القصيدة المشهورة التي نظمها في سجن بربروس تكريما لروح الشهيد احمد زهانا حين اخذ لتنفيذ حكم الاعدام فيه .

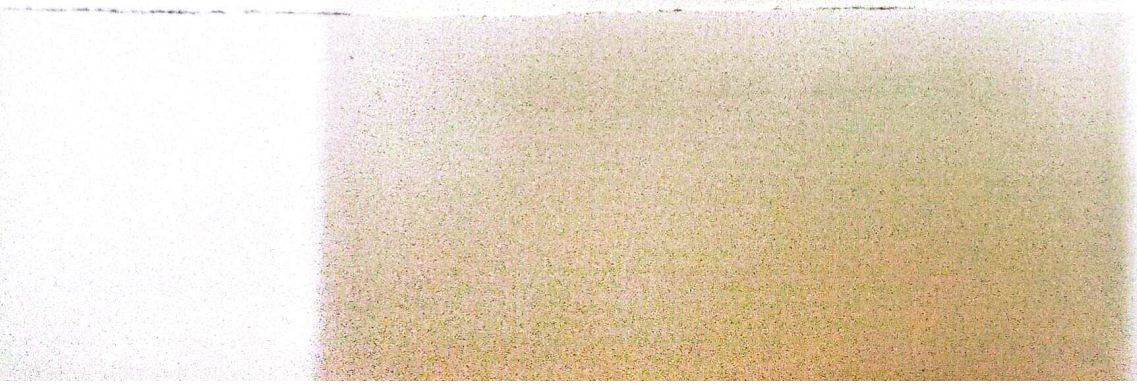

Scanné avec CamScanner